الفصل العاشر

التصـــور

تصل الأشـياء الخارجية إلى الذهن ممثلة فى مجموع صفاتها ، ويسـمى هذا المجموع المدرك الحسى[1] . هذا المدرك الحسى هو أقرب شىء إلى الحقيقة ، وإلى الشىء الخارجى الموجود فى الواقع ، لأنه يصل إليك عن طريق الحواس ، وأنت منتبه إليه ، مثل إدراكك الكتاب الذى تقرأ فيه الآن ، وصلت منه أشعة ضوئية تحدد شكله وحجمه ولونه ووقعت على العين ، ونقلها عصب الإبصار إلى منطقة الإبصار فى المخ فعرفت أنه كتاب . ولكنك تستطيع أن تصرف النظر عن هذا الشىء الخارجى الموجود أمامك فى الواقع ، ثم تستحضره فى ذهنك على هيئة « صورة » ليس إلا . ذلك أنك تخزن فى العقل المدرك الحسى ، ثم تخرجه إذا شئت دون أن يكون الشىء موجوداً ، وهذا ما نسميه « الصورة »[2] .

وليست جميع الصور من ناحية نوعها ، ومن ناحية سهولة أو صعوبة استحضارها ، ومن ناحية مكانها فى الترتيب واحدةً . فالصور البصرية هى تلك التى نستحضرها عن طريق البصر . وأكثر الناس بصريون ، بمعنى أن تصورهم للأشياء يكون عن طريق البصر لا عن طريق الحواس الأخرى . والأشخاص الذين هم من هذا الطراز يتذكرون ما مرّ بهم من قراءات باستحضار الصفحات المطبوع فيها الكلام . كذلك يترجمون الكلام إلى صور بصرية إذا كان ذلك

---

(١) Percept.

(٢) Image.

مستطاعاً ، والقانون فى نظرهم قاضٍ يلبس رداء القضاء . والبصريون أقسام منهم من يتصور الأشكال ، ومنهم من يتصور الألوان ، ومنهم من يتصور الأبعاد الهندسية . فلاعب الشطرنج يتصور فى ذهنه حركة القطعة التى سينقلها والموضع الذى ستصل إليه ، والصورة هنا بصرية حركية فى آن واحد .

والصورة السمعية هى تلك التى تستحضرها فى الذهن عن طريق السمع . فإذا سمعت نغم بوق السيارة ثم اختفى النغم ، تستطيع أن تستحضر صورة هذا الصوت فى ذهنك فيخيل لك أنك تسمعه . كذلك إذا سمعت النغم الموسيقى فإنك تستحضر صورته فى الذهن بعد سماعه . والسمعى حين يريد أن يستعيد درساً حفظه يستحضره عن طريق السمع لا عن طريق البصر ، كأنه يسمعه ، وإذا أراد أن يجمع عددين فإنه يتمتم بشفتيه أرقام هذين العددين . والموسيقيون سمعيون ، فقد كان « بيتهوفن » يردد صدى مقطوعاته الخالدة فى باطن نفسه ، حتى بعد أن أصيب بالصمم . والقدرة على التصور السمعى أقل من التصور البصرى سواء عند الناس على وجه العموم أم عند الشخص الواحد .

والصورة الحركية هى تصور الأشياء المتحركة ، مثل تصور سيارة تجرى ، أو رجل يمشى ، أو حركة الذراع فى الهواء . وهناك صور شمية وذوقية ولمسية ، وهذه جميعاً أصعب فى استحضارها بل نادرة .

وأغلب الناس أوساط ، بمعنى أنهم لا يختصون بنوع واحد من هذه الانواع السابقة وهى البصرية والسمعية والحركية ، بل لهم القدرة على استحضار الصور السابقة كلها .

وليس شك فى أن الصورة تكون أقل دقة ووضوحًا من إدراك الأشياء نفسها ، إذ ينسى المتصور كثيراً من التفاصيل ، بل كثيراً ما يضيف من عنده

أشياء لم تكن موجودة . وهناك تجربة قال بها « السير فرانسس جالتون » حين توجه إلى العلماء أن يسترجعوا الصور المتعددة عن مائدة طعام الإفطار ، بما عليها من شاى ولبن وجبن و بيض وصحون وملاعق . . . ألخ مع التفصيل الدقيق من حجم وشكل ولون . وتستطيع أن تجرى هذه التجربة على نفسك الآن . فهل تستطيع أن تسترجع طعم و رائحة اللبن أو القهوة أو البيض أو الفول أو الجبن ؟ هل تستطيع أن تسترجع خشونة الخبز أو نعومته ؟

و إذا وازنا بين الصورة والإحساس فإننا نجد أنهما يؤديان إلى نفس النتائج الفسيولوجية والنفسية : فالشره حين يجلس إلى المائدة ، و يتصور أطباق الطعام واللذة التى سيحصل عليها ، يسيل لعابه مقدماً . والطفل الذى تهدده بالعقاب ، يتصور ألم العصا فيبكى .

التصور والأدب

مما يجعل للآثار الأدبية قيمة ولذة ، و بهاء ورونقاً ، أن نستحضر فى الذهن الصور الحسية لما نقرأ ، بصرية أو سمعية أو حركية أو أى نوع آخر ، فيتضح الأثر الأدبى فى الذهن ، ونستمتع به أكبر الاستمتاع . فإذا قرأت نظم أمير الشعر المرحوم أحمد شوقى مثلا ، وهو يصف الجسر الواصل بين ضفتى البوسفور ، واستحضرت الصور الحركية والبصرية الموجودة فيها ، فإنك بهذا التصور تملؤها حياةً :

أمير المؤمنين رأيت جسراً أمر على الصراط ولا عليه
له خشب يجوع السوس فيه وتمضى الفأر لا تأوى إليه
ولا يتكلف المنشار فيه سوى مر الفطيم بساعديه
و يبلى نعل من يمشى عليه وقبل النعل يدمى أخمصيه

التخيـــل

التصور كالإدراك الحسى . هو نوع من معرفة الأشياء الخارجية ، مع الفوارق التى ذكرنا سابقاً .

ولـكن هناك نوعاً من الخيال نبتعد فيه عن الواقع كما هو عليه ، ونخرج به إلى مستوى أعلى ، للعقل فيه أثر كبير . ذلك أننـا لا نتصور صوراً بمفردها أو مجموعة من الصور دفعة واحدة ، ولـكن الصور تتجمع متسلسلة متماسكة ، بينها كثير من العلاقات المختلفة التى تؤلف معنى جديداً ، وهذا ما يسمى التخيل[1] فالصورة واقعة واحدة ، والتخيل وقائع متعددة ترتبط بعضها ببعض ، وتسير متتابعة كشريط الخيالة . وللتخيل أنواع متعددة .

١ — من طبيعة كل شخص أن يبصر إلى حد ما مستقبل الأعمـال التى يؤديها وقد يكون هذا التنبؤ قريباً وقد يكون بعيداً . ويقوم التنبؤ على الاستنتاج أو الأمل أو الحلم أو الخوف أو الرجم ، فالاستنباء بالمستقبل أثر من آثار التخيل ، كذلك كل مشروع جديد هو نتيجة الخيال ، فرجال الأعمال يَنْفَذُون بخيالهم إلى تصرفات الناس . والحضارة نفسها تحمل بين طياتها عنصر النظر إلى المستقبل .

٢ — لا يمد الإدراك الحسى الإنسان إلا بجزء محدود جداً من العالم الخارجى ، وكذلك الذاكرة لا تستحضر إلا جزءاً من الماضى . وهنا يتدخل الخيال ليستكمل هذه المساحات المحدودة ، ويوسع آفاقها المحبوءة البعيدة .

٣ — ومن وظيفة الخيال تفسير حقائق العالم ، وقد يكون هذا التفسير جزئياً تعلل به حقيقة بسيطة محدودة بذاتها ، كوقوع سرقة أو ضياع شىء أو رسـوب

---

(١) Imagination.

طالب فى الامتحان . وقد يكون عاما كالقوانين الطبيعية التى تفسر حقائق الكون مثل قانون الجاذبية ، أو كالنظم الفلسفية والدينية .

٤ — واللعب نوع من الخيال الخالى من الغرض ، حيث يسعى الإنسان إلى اللهو دون المنفعة . فالطفل يركب العصا و يبعث فيها الحياة فيتخيل أنها حصان حقيقى . ولعب الكبار قد ينصرف إلى الفن ، فالرسم والموسيقى والتصوير و إنشاء الروايات خروج عن الواقع لإرضاء شهوة الخيال .

٥ — والأوهام المختلفة كالهذيان وأحلام اليقظة والأحلام ، إن هى إلا تخيل خرج عن حدوده وتفكك واكتسب هذه الصفة ، ويوصف التخيل فى هذه الحالة بالضرر ، ويعد هذا من أمراض الخيال .

وللخيال أثر كبير فى درس التاريخ ، لأنه يقرب الأشياء إلى الذهن ، ويبعث فيها الروعة واللذة والحياة ، ويمنع عنها السأم والملل . فإذا كنت تقرأ فى تاريخ « محمد على باشا » دعوته للمماليك فى القلعة ، وهم خصومه الأقوياء ، وأصحاب الشأن فى البلاد من زمن ، ثم إجهازه عليهم فى مذبحة سالت فيها الدماء وقضى عليهم وهم عزل من السلاح على أيسر سبيل ، وقد بلغ عددهم حول الخمسمائة أو يزيد ، فأراح نفسه وأراح المصريين من شرهم المستطير . . . . هذا التخيل هو الذى يبعث الحياة فى المشاهد التى لم تقع تحت حسّنا ، ولم تدخل فى تجربتنا ، وإنما نقرأ ونسمع عنها فقط .

ليس فى هذا النوع من التخيل جدّة أو إبداع أو خروج عن الواقع ، بل هو محاولة استعادة الصور على نسق ما يعرفه الإنسان ، والأهم عندنا هو بحث « التخيل المبتدع » الذى يؤلف صاحبه شيئاً لم يكن موجوداً من قبل كما سنفصل ذلك الآن .

الاختراع[1]

العامل المبتدع هو الذى يخترع وسائل يخرج بها إنتاجا أكبر بمجهود أقل والتاجر المبتدع هو الذى يعرف كيف يبتكر الإعلان الطريف ، ويرتب بضاعته الترتيب اللطيف ، ويقدم للمشترى الصنف الجديد . والكاتب المبتدع أو القصصى البارع هو الذى يصور الشخصيات ويلون الحوادث ، بحيث لا تكون نسخة من الحقيقة ، ولكنها حية معقولة تأخذ بمجامع القلوب . هذا الخيال هو الذى يستطيع الإنسان بواسطته أن يؤلف ويربط الأفكار والصور بطريقة جديدة مبتكرة ، بحيث يخلق الإنسان شيئا جديداً لم يكن معهوداً من قبل .

الاختراع والسن :

يختلف التخيل المبتدع باختلاف السن ، فالخيال عند الطفل مرن مرونة شديدة ، إذ يطفر من أفكار وصور وأحلام إلى غيرها . وللمخيلة عنده قدرة عجيبة على قلب الأشياء ووضعها فى ثوب روائى ، فهو يجد فى الريح التى تهب خارج الحجرة ، وفى الأصوات التى يسمعها صادرة عن الشارع ، أغرب الوجوه وأعجب الأصوات . واللعب البسيطة التى يتناولها بيديه هى شخصيات حقيقية ، يعيش معها كما نعيش نحن فى عالم الأحياء ، « فدمية » الطفلة بنت تجرى فيها الدماء ، وترى وتسمع وتتكلم ولذلك تحركها وتخاطبها كأنها شخص حى .

وللطفل ميل خاص إلى تهويل الأحجام ، وتكبير قوى الإنسان ، وتجسيم الأشياء . أما الرجل فالحقائق تصدمه ، والواقع يحد من خياله ، فلا يستطيع أن يسبح فى عالم الخيال إلى ذلك الحد من الوهم والتهويل كالطفل . لأن العقل يضع

(١) Création, Invention.

سداً يحول دون جموح الخيال . فالطفل لا يعرف من الحقيقة إلا معارف ضئيلة يخلطها بأحلامه ، ويضيفها إلى أوهامه ، وهو لا يدرى إلى أى حد تمتزج الحقيقة بالخيال ، أما الرجل فذهنه مملوء بالحقائق التى تكبح جماح التخيل ، وتمنعه أن يذهب إلى غير حد .

عوامل الإبداع :

يعتقد كثير من الناس أن الخيال المبتدع لما كان صورة غير حقيقية ، فهو غير حقيق فى كل شىء . ولكن الواقع خلاف ذلك ، لأن التخيل المبتدع لا يخلق المادة التى يتكون منها الخيال ، إذ أن هذه المادة موجودة . أما الصفات التى يمتاز بها كل اختراع فإنها ترجع إلى صفتين أساسيتين ، الصفة الأولى هى : « الجدّة » وهى التى بها يتميز الابتكار عن الأشياء التى سبق أن مرت بنا والتى نتذكرها ، والصفة الثانية هى : أن كل اختراع مهما كان بسيطاً ، فإنه يحتوى على أسلوب من « النظام »[1] .

فالاختراع هو تأليف العناصر المألوفة المعهودة بشكل جديد .

والذاكرة الجيدة ضرورة من ضرورات الابتكار ، لأن كل شىء جديد لابد أن يقوم على الذكريات الماضية ، والمعلومات السابقة . وليس من الضرورى أن يتكوّن التخيل من الصور العقلية فحسب ، بل الأغلب أن نلجأ إلى المعانى الجزئية والكلية ، والمعنى أو الفكرة يختلف اختلافاً بيناً عن الصورة ، لأن المعنى يحتاج فى دَرْكه إلى استجماع عدة قوى عقلية كالحكم والعقيدة والاستدلال والمنطق وإدراك العلاقات بين الأشياء .

---

(١) Système.

وعلى العكس من ذلك فإن الذاكرة الصماء ، الشديدة الحفظ فى ناحيـة من النواحى ، تصبح معطلة للاختراع ، لأنهـا تقيد صاحبها فلا يملك تغيير ما حفظ ، بينما الابتكار جدة ، والجدة تغيير .

ولا بد للمخترع أن يحيط علماً بأطراف الموضوع الذى يريد أن يبتكر فيه ، لأن العقل لا يخترع إلا على حساب المعلومات السابقة ، وعلى ذلك فالذاكرة ضرورة من ضرورات الاختراع .

والنزعات الغريزية والفطرية من أهم عوامل الاختراع . وفى المثل المشهور « الحاجة أم الاختراع » . « فالمودات » الجديدة التى تقصد إلى الزينـة هى أثر من آثار حب الظهور ، والمكتشفات والمخترعات والعلوم نتيجة غريزة حب الاستطلاع ، وقديماً اخترع الإنسان البـدائى السلاح من الحجر المسنون والحديد المشحوذ لحاجة الدفاع عن النفس .

ويجب ألا ننسى أثر الوسط الاجتماعى فى بعث المخترعات ، فالمحاكاة تؤدى إلى انتقال الأفكار وشيوع الأعمال ، حيث تنتقل الفكرة من شخص إلى آخر ، ومن شعب إلى شعب ، ثم يعمل المخترع على تحسينها وكمالها . وقد تشيع الأفكار الجديدة فى جيل جديد بعينه مع بعـد الشقة ، لأن الظروف الاجتماعية وأسباب الحضارة تؤدى إلى ذلك ، ففى الوقت الذى كان « دارون » يمهد لنظرية التطور فى انجلترا كان « لامارك » يذيعها فى فرنسا .

ويتم الاختراع فى ثلاث مراحل أساسية : تحليل وتركيب وإلهام[١] .

١ — التحليل :

لأجل أن نؤلف بين العناصر الموجودة الحقيقية تأليفاً جديداً نسميه اختراعاً

(١) Analyse, synthèse, inspiration.

يجب أن نحلل أولاً الأشياء إلى عناصرها . والتحليل هو نتيجة التخيل المبتدع ، فأنت إذا دخلت حديقة ، قسمتها إلى ستة أجزاء مثلاً فهذا حوض الزهر ، وهنا مجموعة الشجيرات ... إلى غير ذلك . فتحليلك الحديقة هذا التحليل هو نوع من الخيال . والعالَمُ فى نظر الطفل أو الرجل الجاهل شىء واحد أو مركب من أشياء لا عدد لها ، أما فى نظر الشخص المتعلم فالعالم يتركب من ثلاث مواد ، صلب وسائل وغاز . فهذا التحليل نتيجة الإبداع .

٢ — التركيب :

بعد تحليل الشىء إلى عناصره تؤلف بين هذه العناصر تأليفاً جديداً غير موجود فى الحقيقة . ففى الحديقة التى حللتها إلى أقسام تستطيع أن تؤلف بينها تأليفاً جديداً تتخيل الزهر يتدلى من الدوح والطير ينبت من الدوح . . . . . إلى غير ذلك . وعندنا « طاليس » الفيلسوف اليونانى تخيل أن الماء هو أصل الأشياء ، لأنه يتجمد تارة فيكون صلباً ، ويصبح بالحرارة بخاراً تارة أخرى . والمصورون الذين لم يشاهدوا الملائكة ، يتمثلونهم فى صورة بشر لهم أجنحة . والموسيقى البارع لا يفعل أكثر من التأليف بين الأصوات السبعة المعروفة فيخرج لنا لحناً جديداً شجياً .

٣ — الإلهام :

هذا التركيب الجديد يكون فى الواقع نتيجة إلهام لا ندرى كيف يحدث ، ولم يستطع العلماء حتى الآن أن يعرفوا كنه هذه الهبة التى توجد عند بعض الناس وإليك مثلا يبدو فيه أثر الإلهام واضحاً . كان « نيوتن » نائماً ذات يوم تحت شجرة فوقعت عليه منها تفاحة ، فتخيل أن سبب وقوع التفاحة هو « جاذبية » الأرض لها ، وكانت هذه الحادثة البسيطة سبباً فى كشف قانون من أكبر قوانين

العالم ، فكيف تخيل نيوتن قانون الجاذبية ؟ فقد رأى الإنسان من آلاف السنين الأشياء تقع أمام بصره ، ورأى نيوتن نفسه آلاف الأشياء تقع أمامه ، فلماذا لم ينتبه إلى هذا الفرض إلا فى تلك اللحظة ؟ لا شك أن هذا التخيل هو نوع من الإلهام أو الوحى ، أو هو قبس من النور يطرأ على العقل فجأة فينير ظلمته . ويمتاز الإلهام بصفة « المفاجأة » إذ يظل الإنسان حائراً لا يدرى كيف يفعل فيما يريد أن يبتكر ، وإذا بالفكرة الجديدة تأتى إلى الذهن فجأة ، أو كما يعبر الشاعر « الفريد دى موسيه » « كمجهول يهمس فى آذاننا[١] » .

والحقيقة أن الإنسان إذا كان لا يشعر كيف يصل إلى الاختراع ، فإن عقله الباطن أو اللاشعور يظل يعمل فى الخفاء وينظم الأمور ، حتى تتهيأ النتيجة الأخيرة عنها فتطفو إلى مستوى الشعور ، ويُلْهَم بها صاحبها .

ولنضرب مثلا بسيطاً يتضح فيه التحليل والتركيب والإلهام . هبك تحل تمرين هندسة فإن أول شىء تعمله هو تحليل هذا التمرين وتفكيكه ، ثم تظل ساعة لا تهتدى إلى الحل ، وإذا بك تصل إليه فجأة ، لا تدرى كيف كان ذلك وإنما هو الإلهام ساعدك على تركيب العناصر التى حللتها ، وعلى تركيبها تركيباً جديداً هداك إلى الحل والصواب .

الاختراع النافع :

لأجل أن يكون الاختراع مفيداً ينبغى أن يكون للإنسان غرض يسعى إليه أولا ، ونظام يخطه لتحقيق ذلك الغرض ثانياً ، وأن يكون كلا الغرض والنظام فى حدود الإمكان ثالثاً . وفى هذه الحالة يصبح الاختراع مفيداً فى كل مرافق

---

(١) Comme un inconnu qui nous parle à l'oreille.

الحياة ، فى الحياة العادية العملية ، فى العلوم والمخترعات وفى الفنون .

ينبغى أن يكون الغرض ممكن التحقيق ، فكثير من الناس يفرضون لأنفسهم غايات هى شبه المستحيل ، كالتاجر الذى يكسب عشرة جنيهات فى الشهر ، فيطمع فى ربح قدره ألف فى الشهر التالى . هذه قصور تبنى على الماء ؛ ومثل القوم الذين يطمعون فى هذه الأغراض ، مثل الطفل الذى يتصور إمكان الإمساك بالقمر .

فإذا وضعت لنفسك الغرض المعقول ، كالطالب الذى يتطلع إلى النجاح بتفوق فى الامتحان ، أو التاجر الذى يربح خمس عشرة جنيهاً فى الشهر بدل عشرة ، وجب أن ترسم خطة محكمة الوضع للوصول إلى الغرض . هذا النظام فى الخطة لا ينشأ إلا عن دراسة الموضوع الذى تعمل له دراسة وافية علمية قائمة على أساس من الحقيقة والواقع والمعرفة . نرى كثيراً من الناس يعنون بوضع قصص أو روايات و يتألمون لأنها لم تنجح ، والسر فى سقوطها وسقوطهم هو أن القصة أو الرواية فن يحتاج إلى دراسة و إلى معرفة أصول الروايات وحبكها ولغتها وحوارها... وقد فطن العالم المتحضر إلى هذه الحقيقة فقيّد المهن المختلفة — خصوصاً ما كان منها ذا خطر على حياة الإنسان — بقيود الشهادات العلمية ، حتى لا يعمل صاحب المهنة جزافا بل يعمل على أساس . وهذا حق ، لأننا لا نستطيع أن نفهم أن يقوم شخص لم يتعلم صناعة التماثيل والنحت والتصوير ، فيعمل تمثالا كتمثال نهضة مصر ، أو أن جاهلا يخترع جهازاً كهربائياً مفيداً .

فلأجل أن يكون الخيال مفيداً ينبغى أن يكون لك غرض مفيد ممكن التحقيق ، ثم يجب أن ترسم خطة أو نظاما تسير وفقه فى تخيلك ، وتضع حدوداً تقف عندها ولا تتخطاها . للكون سنن يجرى عليها ، قال الله تعالى « لا الشمس

ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » . فإذا خرج الخيال عن النظام الموضوع المقيد بالواقع والحقيقة ، وسبح الإنسان فى الفضاء ، ينتقل من فكرة إلى فكرة دون غاية ودون رابطة معقولة بين الأفكار كان التخيل ضاراً بصاحبه . وسنضرب الأمثلة على فائدة التخيل فى جميع مرافق الحياة :

١ — فى الحياة العامة :

فأنت فى كل لحظة من لحظات حياتك الخاصة تستفيد من التخيل المبتدع ، فمسكنك فى منزل خاص يطل على حديقة غناء ، وترتيب حجراته بنظام مخصوص هو نتيجة الإبداع . ثم انتقاؤك الملابس والأحذية بحيث تكون ذات ألوان منسقة بديعة ، كل هذا من عمل الابتكار . كذلك التاجر الذى يصنف « واجهة دكانه » والصحفى الذى يرتب جريدته والطالب الذى يصف الكتب فى القمطر . . .إلى غير ذلك ، كلهم يعملون على أساس التخيل المبتدع .

وله غير ذلك أثر عظيم فى خلق المثل الأعلى الذى هو ضرورى لنا جميعاً ، ذلك أن الإنسان مثله مثل كل كائن حى يسعى إلى غاية ، هذه الغاية قد ركبت فى الحيوان بالغريزة ، فهو يسعى إليها دون أن يعرف ذلك أو يشعر بها ، ولكن الإنسان قد تركت له الحرية فى اختيار غاياته أو مثله العليا ، وهذا الانتخاب نتيجة الاختراع .

٢ — فى الفنون :

الفنون الجميلة نوع من التعبير بالرموز والاستعارات كالرسم والموسيقى والنحت والشعر والقصص . . . ألخ ، عن المعانى و العواطف التى تجول فى ذهن صاحبها .

ومنطق الفن مستمد من العواطف والمشاعر الباطنة . وهو شخصى[١] . ويتمثل فى الغالب فى صور حسية حية . وللإلهام أثر كبير فى بعث هذه الآثار الفنية ، وللفنانين فضل كبير فى إبراز المعانى الخفية الغامضة التى تخفى عن أعين العامة من الناس ، فروايات « شكسبير » الخالدة تجلى لنا العواطف الإنسانية كالغيرة والبخل والشرف إلى غير ذلك بحيث نلمسها بأيدينا . والفنون الجميلة جميعاً هى أثر من روائع الخيال .

٣ — فى العلوم والمخترعات :

و يمتاز العلم عن الفن بأنه مشترك بين جميع الناس ، أى موضوعى[٢] ، على العكس من الفن فإنه شخصى . وجميع المكتشفات العلمية والنظريات والقوانين إن هى إلا أثر التخيل المبتدع . فقانون الجاذبية ، وقاعدة أرشميدس ، ودوران الأرض وكرويتها ، كلها فروض هى نتيجة الابتداع . ولم يصل المخترعون إلى ما وصلوا إليه ، حيث تقدموا بالعلم والحضارة ، إلا بخيالهم الخصب المنتج .

أحلام اليقظة[٣]

كثيراً ما ترى شخصاً قد شرد عن الانتباه إلى ما يحيط به ، وذهب مع نفسه يسبح فى عالم الخيال ، فيصبح فى حالة من شرود الفكر وتشتت الانتباه ، وهى الحالة التى يطلق عليها العامة لفظ « السرحان » . هذا الشخص الذى يفقد صلته بالعالم الخارجى ، يعيش بينه و بين نفسه ، فهو كالنائم ولكنه ليس بنائم . إنها حالة بين اليقظة والنوم . تُرى ما هى هذه الخواطر التى تجول فى ذهن هذا الشخص ؟ كل منا تمر به هذه الحالة ، فهى أمر طبيعى ، ولا يعد ذلك مرضاً إلا

---

(١) Subjective. (٢) Objective.
(٣) Rêveries.

إذا كثر شرود الشخص إلى درجة تؤرق منامه وتعطل أحواله . وكل منا يتجه فى أوهامه حسب ميوله ورغباته وظروفه ، وفى المثل « كل يغنى على ليلاه » ، فالطالب يذهب به الخيال إلى مرحلة الامتحان ، ثم يتصور بعد ذلك أنه جاز الامتحان بنجاح عظيم ، ثم هيأت له الظروف عملاً عظيماً فى إحدى الشركات يدر عليه الربح الوفير فيلبس فاخر الثياب ، ويقتنى السيارات الحديثة . . . وهذا شخص أنيق الملبس حسن القوام ، يتخيل أن الخيالة لم تخلق إلا ليكون ممثلاً بها ، وأن الحظ أخطأه حتى الآن ، ولكن الزمن سيقبل عليه وسيصبح بعد حين كبير الممثلين . وهذا تاجر كاسد الحال يتصور أن الصفقة المقبلة ستكون خيراً وبركة ، ثم يمتلىء بالمال ، فيقضى ما عليه من دين ، ويوسع تجارته .

فما لا يستطيع الإنسان أن يحققه فى عالم الواقع ، لا يجد سبيلاً إلى تحقيقه إلا فى عالم الخيال . والباعث على ذلك أن الإنسان يحب دائما تحقيق رغباته ، كالحصول على المال والمركز والزواج والأولاد والأسفار إلى غير ذلك ، وكثيراً ما تقوم عقبات كثيرة فى طريق هذه الرغبات تحول دون تحقيقها ، فيعمد صاحبها إلى أحلام اليقظة يسرى فيها عن نفسه ، ويحقق رغباته المختلفة .

الأحلام[1]

يصحب النومُ ظهور الأحلام . والحلم من طبيعة الإنسان ، بمعنى أنه عام عند جميع الأشخاص . ويعزو العامة إلى الأحلام قيمة كبيرة ، فيحاولون بها التعبير عن المستقبل ، وليس الأمر كذلك لأن العلم لا يؤمن بالكشف عن الغيب ، أما ما يؤثر عن تعبير الرؤيا بحيث تنبىء عن المستقبل ، مثل ما حدث ليوسف الصديق

---

(١) Rêves.

فى أرض مصر ، فهو من باب المعجزات الدينية ، والخوارق التى يختص بها الدين دون العلم .

وترجع أسباب الأحلام إلى اثنين : فسيولوجى ونفسانى . أما السبب الأول فهو أن النائم لا يدرك شيئاً لا نعدام الانتباه والشعور ، فإذا حدث بداية ليقظة ، أمكن أن تصل الإحساسات إلى العقل ، لكنه لا يدركها على حقيقتها ، فيحدث نوع من الخداع . ثم يجسم النائم هذه الإحساسات ويركب منها ما يشاء من أحلام . فإذا سمع وقع رذاذ المطر على الشباك ، تخيل أنه قصف المدافع فى حومة الحرب ، وإذا وخزته بعوضة توهم أنها طعنة سيف من عدو لدود . وللحواس الباطنة مثل هذا الأثر ، فإذا أكل الإنسان أكلة دسمة تتألم لها المعدة ، فإنه يظن أنه واقع فى مخالب وحش مفترس هائل ، وهذا الحلم نسميه عادة « الكابوس » .

وأغلب الناس ينسون الحلم تماماً حين الصحو من النوم ، وقد لا يذكرون منه إلا طرفاً يسيراً ؛ ولكن الغريب أن بعض هذه الأحلام يتذكرها الإنسان بجميع تفاصيلها الدقيقة ، ومنها مالا ينساها صاحبها طول الحياة .

والصور فى الحلم تكون غريبة عن المألوف مقلوبة الأوضاع ، وينعدم فيها المنطق والتسلسل المعقول ، ولا يحسب للزمن حساب . وعلة ذلك أن الإنسان لا يدرك ولا يعى ما يحلم ، وتنعدم الرقابة العقلية التى ترغم الإنسان على التفكير فى حدود الواقع والحقيقة . وكثيراً ما يخرج الحالم فى الحلم على الحدود الخلقية والشرف الموضوع ، وسبب ذلك أن الإنسان يعود إلى الفطرة الأولى ، وإلى الغرائز الطبيعية الكامنة التى تنطلق على سجيتها دون رقابة من المجتمع أو التقاليد أو العرف أو الدين .

ومن أسباب بعض الأحلام أن الإحساسات التى تؤثر فينا فى النهار ، لاتزول

ولا يمحى أثرها ، بل تستمر وتظهر فى صورة الأحلام فى الليل . وليست كل الإحساسات تبعث على ذلك ، بل الإحساسات الغريبة التى تنشأ عن المناظر غير المألوفة التى يراها الإنسان لأول مرة ويعجب لها . وهذه أحلام عارضة ، غالباً ما ينساها صاحبها سريعاً .

ونظرية « فرويد » فى الأحلام مشهوره ، وخلاصتها أن الحلم تحقيق رغبة لم يستطع صاحبها أن يحققها . وأحلام الأطفال واضحة الدلالة فى تأييد هذه النظرية ، وأحلامهم بسيطة وتفسيرها يسير ، لأن حياتهم لا تعقيد فيها ، وهى تدل دائما على الرغبات التى يودونها فى أثناء النهار كاللعب والحلوى ... ألخ .

ويقص « فرويد » عن نفسه أنه حلم أنه عطش عطشاً شديداً ، فأحضرت له زوجته الماء فى « زهرية » زجاجية كان قد أحضرها معه من رحلة فى إيطاليا . ولكن الماء حين شرب منه كان شديد الملح فازداد عطشاً ، ثم صحا من النوم ، فوجد نفسه ظامئاً . وتفسير هذا الحلم هو رغبة صاحبه فى الشرب ، أما ظهور الزهرية فسببه أنها كانت ثمينة ولكنها فقدت ، فهو يرغب فى عودتها .

ولا تجرى جميع الأحلام على هذا النسق ، بل منها ما يظهر فى صورة ألم شديد ، وتظهر كذلك رموز رهيبة مخيفة ، كالأفاعى والحشرات السامة . وهذه تعبر عن الآلام التى تصيب الإنسان ، وعن المخاوف الكثيرة التى تحيط به ، كالخوف من الفقر ، والعار ، والفضيحة ، والجريمة ، والسجن . وكثيراً ما تكون هناك عقد نفسية مكبوتة فى اللاشعور ، ولا يستطيع صاحبها أن يظهرها ، فيبعثها اللاشعور وتظهر فى الحلم .